المحاضرة السادسة: مناهج البحث الأدبي والعلوم الاجتماعية والإنسانية

تطرقنا سابقا إلى تحديد مصطلح المنهج وقلنا أنه يعني الأسلوب أو الطريقة أو الطريق الواضح المحدد الذي يسلكه الباحث للوصول إلى المعرفة الجيدة، وقد استعمل عند "أفلاطون وأرسطو" بمعنى **النظر أو البحث أو المعرفة**، أي أن المنهج هو ترسانة من القواعد والقوانين التي يتبعها الباحث بغرض وصوله إلى الحقائق العلمية.

أولا: التطور التاريخي لمنهج البحث العلمي:

كانت بداية الاهتمام بمسألة المنهج مع بداية عصر النهضة في القرن السادس عشر عندما حاول **"راموس"** تقسيم المنطق إلى أربعة أقسام متمثلة في "التصور والحكم والبرهان والمنهج" وأولى اهتمامه بالمنهج في الأدب والبلاغة إلا أن بداية إرساء قواعد مناهج البحث العلمي كانت خلال القرن السابع عشر عند الفيلسوف الانجليزي "فرانسيس بيكون" وكتابه "الأورغانون الجديد" والذي يحمل معنى الأداة الجيدة.

حاول "بيكون" وضع أسس للبحث العلمي من أجل الابتعاد عن النظريات الفلسفية اليونانية القديمة، من خلال وضع قواعد المنهج التجريبي الجديد الذي يقوم على **الاستقراء** وبذلك خالف منهج **أرسطو** الذي يقوم على أساس القياس، مؤكدا على ضرورة استخدام التجريب والملاحظة المنظمة بديلا لذلك، لأن المنطق الأرسطي يقوم على البرهنة والاقناع على الحقائق الموجودة لا الكشف عن الحقائق الجديدة، ولهذا جاءت دعوة **"بيكون"** إلى ضرورة الخروج عن الحقائق التي نحملها مسبقا في أذهاننا إلى الملاحظة والتجربة وهو ما شكل ثورة فكرية منهجية تخالف المنطق الأرسطي، وكان ذلك إلى جانب الكثير من الفلاسفة أمثال **جاليلو وديكارت** بعد طرحه للمنهج الرياضي وغيرهم ممن تمكنوا من توضيح أفكار المنهج الفكري الجديد الذي أسقط المنطق الأرسطي، مما أدى إلى ظهور ثلاثة مناهج أساسية جاءت تلبية لمطالب العلوم في تلك الفترة وهي المنهج الاستقرائي والمنهج الاستدلالي والمنهج الاسترادي.[1]

ثانيا: مناهج البحث الأدبي وتطورالعلوم الإنسانية والاجتماعية :

لقد عرفت أروبا في القرن التاسع عشر نهضة فكرية وعلمية كبيرة في مجال العلوم الطبيعية والتجريبية، وقد حاول الدرس الأدبي الاستفادة من النتائج الذي توصلت إليها العلوم الطبيعية ومناهجها ومحاولة تطبيقها في مجال الأدب كان ذلك مع "سانت بيف" ودعوته إلى تطبيق قوانين علم النبات على تاريخ الأدب وإخضاعه لمناهجه العلمية من خلال دراسة شخصيات الأدباء من كل الجوانب ومعرفة الصفات التي ينفرد بها عن غيره والصفات التي يشترك فيها مع غيره الأمر الذي قد يسهل على دارس الأدب تصنيف الأدباء إلى مجموعات ومدارس واتجاهات. كما حاول "هيبوليت تين" تطبيق مناهج التاريخ الطبيعي (الجنس والزمان والمكان) وتأثيرهم على الأدب مثل الكائن الحي، ومن جهة أخرى حاول "برونتير" تطبيق نظرية داروين في تطور الكائنات الحية أو الأنواع على الفنون الأدبية باعتبارها تتخضع لنفس شروط الكائن الحي في نشوئها وتطور أشكالها وقد طبقت على المسرح والشعر الغنائي والنقد الأدبي، وانتهى إلى أنها تخضع إلى نفس شروط نشوء وتطور أنواع الكائن الحي، ولكن مع مطلع القرن العشرين عرفت العلوم الإنسانية هي الأخرى تطورا كبيرا فحاول الدرس الأدبي الاستفادة من نتائجها ومناهجها التي توصلت إليها إذ اعتبروا أن العلوم الإنسانية أقرب إلى مجال الأدب من العلوم الطبيعية، وعليه فالمنهج الصائب لمجال الأدب يجب أن يستمد أسسه من مناهج العلوم الإنسانية وليس من مناهج العلوم الطبيعية.

وفي خضم التطور الذي عرفته العلوم الإنسانية اتجه الأدب إلى الاستفادة من الدراسات الاجتماعية والتاريخية والنفسية ...الخ ، ومحاولة بعض الأدباء مقاربتها على الدراسات الأدبية ومن هنا تفجرت الكثير من الرؤى والاتجاهات المنهجية في دراسة الأدب.

إن تطور المناهج دائما يواكب تطور العلوم وتقنياتها لذلك نجد الكثير من مناهج البحث الأدبية منها المناهج النقدية القديمة السياقية مثل المنهج النفسي التاريخي والاجتماعي والجمالي والمقارن...الخ وأيضا مناهج النقد الحديثة أو النصية مثل البنيوي

السيميائي الأسلوبي الأسطوري التأويلي...الخ، والمناهج ما بعد الحداثية ....الخ، فالمناهج النقدية بطبيعة الحال كثيرة ومتنوعة وقد درستموها في مقاييس خاصة بها، ولكننا سنحاول أن نقف عند المناهج التي مثلت الاتجاهات الكبرى في دراسة الأدب العربي والتي انبثقت عن مجال العلوم الاجتماعية والانسانية:[2]

01_المنهج التاريخي: هو أقدم المناهج النقدية التي تعنى بالسياق الخارجي للنص يقوم على أساس تتبع الأدب العربي تتبعا تاريخيا، فهو يعتمد على حوادث التاريخ السياسية والاجتماعية من أجل دراسة الأدب وتفسيره وتعليل ظواهره. وأبرز نقاد المنهج التاريخي الغربيين نذكر: هيبوليت تين، سانت بيف، لانسون...الخ فهو[3]:

- ✓ يربط بين حركة الأدب وتطوره وبين العصور السياسية التي عرفها التاريخ العربي منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث وأبرز العصور التي قسمت باعتماد المنهج التاريخي هي (العصر الجاهلي، العصر الإسلامي، العصر العباسي، عصر الدول المتتابعة، والعصر الحديث)
- ✓ يتعامل مع النص الأدبي كوثيقة تاريخية ويعنى بتفسير الظواهر الأدبية والمؤلفات وشخصيات الكتاب.
- ✓ يلتزم بالموضوعية وذلك باعتماده على الحقيقة التاريخية
- ✓ دراسة شخصيات الأدب العربي وظواهره المختلفة وتتبعها تتبعا تاريخيا مثل كتاب طه حسين "مع المتنبي"...الخ
- ✓ دراسة فن معين من فنون الأدب في حقبة تاريخية ما، أو اتجاه معين أو مدرسة من مدارسه الفنية والفكرية
- ✓ تصنيف النصوص في مدارس ومذاهب وأنواع
- ✓ دراسة نص من نصوص الأدب، والوقف عند خصائصه، بالعتماد على تاريخ النص، ومناسبته، وحياة كاتبه، وكل العوامل الخارجية المؤثرة فيه.

✓ دراسة أديب من أدباء عصر معين، وتبيين ملامح أدبه من خلال سيرته والظروف الاجتماعية والسياسية التي عايشها.

وأبرز الكتب التي تناولت الأدب العربي باعتماد المنهج التاريخي نذكر: تاريخ آداب اللغة العربية لحسين توفيق العدل، كتاب تاريخ الأدب العربي أحمد حسن الزيات، جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية.

02_ المنهج الاجتماعي: لا يمكن في واقع الأمر فصل المنهج الاجتماعي عن المنهج التاريخي فهما متداخلان بشكل كبير لأن الحياة الاجتماعية ترتبط بالحياة والظروف السياسية فقد ولد المنهج الاجتماعي في أحضان المنهج التاريخي، وقد ظهر نتيجة الثورة الماركسية وهو: [4]

- يتعامل مع النص الأدبي كوثيقة اجتماعية
- يدرس التفاعل الحتمي بين الأديب وبيئته أو المجتمع الذي يعيشه فيه وأثره على كتاباته الأدبية
- ربط الأدب بالمجتمع، واعتبار الأديب ابن بيئته فهو يغترف أفكاره وتصوراته منها
- اعتبار الأدب جزء من النظام الاجتماعي ووظيفته اجتماعية
- تفسيري يهتم بمضمون العمل الأدبي
- دراسة الظواهر الأدبية وربطها بالظروف الاجتماعية المحيطة والمؤثرة فيها أي أن الأدب ظاهرة اجتماعية مثل دراسة ظاهرة النقائض في الشعر العربي عند أحمد الشايب، ظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي...الخ

03_المنهج النفسي: يتعامل هذا المنهج أيضا مع السياق الخارجي للنص الأدبي ويركز على شخصية الأديب وقد برز فعليا مع سيغموند فرويد الذي درس الآثار الأدبية باعتبارها متأثرة بنفسية الأديب، فهو :[5]

- ينظر إلى الأدب كمرآة لنفسية الأديب
- يبحث في عملية الخلق والإبداع الفني ويحاول استكناه العوامل الشعورية وغير الشعورية المشكلة لهذا الإبداع
- دراسة نفسية الأدباء في محاولة لتبيان العلاقة بين مواقفهم وأحوالهم الذهنية وبين خصائص نتاجهم الأدبي والدوافع النفسية خلف إنتاجاتهم الأدبية
- دراسة علاقة تأثر المتلقي بالأدب
- تفسير النص الأدبي من خلال الحياة الخاصة للأديب
- تتبع حياة المؤلفين ومحاولة إيجاد العلاقة بينهم وبين نصوصهم الأدبية
- ينظر للأدب على أنه انعكاس لشخصية مؤلفه، والأدب وثيقة نفسية لفهم أغوار نفسية الكاتب اللاشعورية

أمثلة عن الدراسات التي اعتمدت هذا المنهج في دراسة الأدب العربي نذكر: ابن الرومي في كتابه "حصاد الهشيم"، محمد النويهي في كتابه "شخصية بشار"، و "نفسية أبي نواس" ...الخ.

يتوجب على كل باحث اختيار المنهج الذي يناسب دراسته، وينير طريقه بكل وضوح ودقة فاختيار المنهج ضروري من أجل الوصول إلى نتائج جيدة في البحث، فإذا لم يكن الباحث على دراية بتطبيق المنهج الدي اختاره أو كان جاهلا بآلياته فإنه يوقع صاحبه في ضبابية معرفية لا يمكنه الوصول إلى أي نتيجة، ومناهج البحث الأدبي متنوعة وكثيرة بتنوع مواضيع البحث، حيث يستطيع الباحث اعتماد أكثر من منهجين كاعتماد المنهج التاريخي والاجتماعي إلى جانب منهج آخر على أن يكون حريصا في توظيفهم حسب متطلبات موضوع بحثه.

هذه المادة العلمية مأخوذة من المراجع التالية:

[1] _ينظر: يوسف خليف: مناهج البحث الأدبي، ص22إلى ص32.

[2] – ينظر: شوقي ضيف: البحث الأدبي (طبيعته –مناهجه_أصوله_ مصادره)، من ص75إلى ص95.

[3] – ينظر: وليد قصاب: مناهج النقد الأدبي الحديث، من ص26إلى ص27.

[4] –– ينظر: وليد قصاب: مناهج النقد الأدبي الحديث، من ص39، ص46.

[5] –– ينظر: وليد قصاب: مناهج النقد الأدبي الحديث، من ص53 إلى ص61.